أن تطأ فلسطين

. أيهم السهلي .

أيهم السهلي

كاتب فلسطينيّ مقيم في سوريا. يعمل محرِّرًا للقسم الثقافي في مجلة **الحرّية** (الفلسطينية).

لطالما توقّفتَ عند الحدود ممسكًا حفنةً من ترابٍ يمتدّ نحو بلادك، نحوك، قاصدًا أن يحمل النسيمُ مسامَك إلى القدس وحيفا ويافا ورام الله وغزّة وكلِّ بقعة من فلسطين.

ما أشدّ حبَّكَ لنفسك، أيها المنفيُّ خارج الأرض، اللاجئُ في أرضٍ أخرى هي أرضُكَ بامتداد الانتماء إلى عروبتك.

ما أشدّ حبّكَ لهذه النرجسيّة: فلكونكَ فلسطينيّاً، تجدك من كلّ الأماكن ومن فلسطين في الوقت نفسه.

فكم أنت واحدٌ، وكم أنت كلٌّ! تجمع الكونَ في راحتيك وأنت ممتدّ على خارطة العالم كلّها، حاملا اسمَك واسمَها.

كبير أنت، وبها تكبر، رغم الدروب الطويلة والمنافي الكثيرة.

لطالما توقّفتَ عند الحدود، صارخًا في وجه جنديّ عند الطرف الآخر: «ها هنا أرضٌ عربيّة، ولا بدّ أن تمضي قدماي عبرها إلى فلسطين.» وببارقة حلمٍ يشتدّ بك الحنينُ، فيصيرُ امرأةً تعانقكَ حدّ الاعتصار لتتقاطر مطرًا عليها.

ها هنا لاجئ: سنواتٍ طويلةً وقفتَ، مع غيرك من اللاجئين، تنتظرون، وتنظرون حولكم كلّما زاد البعدُ يومًا، متسائلين إلى متى؟ إلى أن أعود! المخيّم باقٍ هويّةٌ تصدح، ولن يموتَ ما لم أولدْ من جديد، من رحم أرضٍ أنا منها وهي مني.

ما دلّنا أحدٌ على الطريق. يولد الفلسطينيُّ، أينما وُلد، على الفطرة: على أزليّةِ فلسطينيّته. وتأخذ عروقُه شكلَ خارطة بلاده: ها هنا مدنُها وقراها، مساجدُها وكنائسُها، وشجرُها الممتدُّ من أقصاها إلى أقصاها.

منذ الولادة، يدرك الفلسطينيُّ الحبَّ الذي لا براءَ منه، الارتباطَ المطلقَ بالأرض، رائحةَ الزعتر في حديث الأهل، وطعمَ الليمون في ذاكرة الأجداد.

ما دلّنا أحدٌ على الطريق..

فلنا الهويّةُ والطريق..

ونحن الوصولُ إلى ما نريد..

ما دلّنا أحدٌ على الطريق.

من دمشقَ إلى فلسطين:

من الخيمةِ إلى الوطن!

دمشقُ القصيدةُ كلّها. دمشق تنطق العربيّة في شجرها ونسيمها ومائها. ودمشقُ تولد كلّ ليلة من قصائد المتنبّي، لتحيا في ترابها قصائدُ درويش. لم يأتها شاعر ليركن إلى نفسه قليلاً إلا وركنتْ هي إليه ليكتبها على طريقته.

أنت في دمشق، بعد ٦٣ عامًا من عمر النكبة، و٢٥ سنة من عمر اللجوء. وفجأةً، في مخيّم اليرموك وسط دمشق، وأنت جالس على سطح «المركز الفلسطينيّ للثقافة والفنون،» يَطلب منك غسّان صورةً لجواز السفر. وببارقة حدسٍ عرفتَ أنك ذاهب إلى فلسطين. ولكنك تسأل: إلى أين؟ يجيبك غسان بفرحةٍ كنتَ تشاهدها على أوتار عوده حين يغنّي للوطن والحب. «ما أجمل الفكرة،» تصرخ في داخلك. سأعود!

يقترب الوعد، وأنت تداوم على السؤال: متى نذهب؟ يتأجّل الموعدُ المأمولُ شهرًا؛ فثمّة إجراءاتٌ تحول دون العودة. ثمة اضطرابٌ. قد نذهب وقد..

في الثانية عشرة ليلاً أطلّت جنّةٌ من صوت غسّان، وبحديثه التمعتْ نجومٌ، ورقص قمرٌ: «نلتقي عند السادسة صباحًا لنذهبَ... إلى فلسطين!»

لملمتَ كلّ شتاتك وشتاتِ المخيّمات، وانطلقتَ إلى موعدك المنتظر، حالمًا بالكثير، وخائفًا من انكسار أحلامك الكثيرة عن الوطن. مخاوفُكَ ازدادت وأنت تواجه الحدودَ الأردنيّة الأولى.

تخرج من الحدود، وتدخل الأردن عابرًا عمّانَ نحو جسر الملك حسين، مارّاً بمنطقة الكرامة، حيث موقعة الكرامة، الحاضرة في ذاكرة العرب إبّان نكسة حزيران. تصل المعبر. الوطن على بعد خمسة كيلومترات فقط! ترى أريحا، مدينةَ التاريخ والحضارة. ترى أفقَ فلسطين.

تتوقّف عن التدخين. صرت تريد أن تأخذ الشمسَ نحو الغياب، كي يُسرِعَ الوقتُ.

تتسلّم التصريحَ الذي ستمرّ عبره من النقطة الإسرائيليّة إلى بلادك. تغتالك دمعةُ «حسن» اللاجئ من لبنان، و«حسن» اللاجئ من سوريا؛ فهما بلا تصريح. يعود الزمنُ بك إلى الوراء، إلى تاريخ شعبك. السيّدة حوريّة، التي رافقتْ فرقتَها الشعبيّة (فرقة الكوفيّة)، تفاجئك في عمّان بأنها لن تدخل معكم لأنها لم تحصلْ على موافقة. ستعود مع الحسنيْن. هكذا الفلسطينيّ: عائدٌ دومًا.

تصل إلى النقطة الإسرائيليّة. تُمنع من حمل حقائبك. يتقدّم شبّانٌ يرتدون اللون البرتقاليّ، وترتديهم سحنةٌ تشبهك. تعرف أنهم فلسطينيون مثلك. تقف في الطابور الأول. خلفك غسان، صاحبُ البشارة. تسأله: «طلعتْ إسرائيل جدّ، مش مزحة؟!»

تجتازهم واحدًا واحدًا، ذاكرةً ذاكرةً، طلقةً طلقةً. تقف مقابلهم، وهم يسألونك عمّا أتى بك إلى إسرائيلهم. لأول مرة تعرف معنى الأنا والآخر بهذه الحدّيّة المثيرة للسخرية. ها أنت وها هو. وقد يكون هذا الواقفُ أمامك هو الساكنَ بيتكَ في «بلد الشيخ» في حيفا. وربما لو سألتَه من أين أتى لأجابك: «من حيفا، من تل حنان، بلد الشيخ ذاتها.» قد تكونان متشابهين في كلّ شيء.. إلا في أمر واحد، هو الفارق الكبير والنهائيّ ولا حلّ له: الأرض! والأرض تعرف أولادها ولا تخطئ رائحتهم، وليمونةُ الدار تربطها علاقةٌ سريّةٌ بزيتونة الدار، ويدُ جدّك شاهدة على الشجرتين حين كانتا غرستين ضمّهما إلى الأرض.

هو قاتلك وأنت قاتلُه. هو بسلاحه ودمويّته وهستيريا القتل؛ وأنت قاتله حين يراك عند الحدود تضجّ بفلسطينيّتك.

دخلتَ فلسطين ليلاً. وما إنْ دخلتَ حتى بدأتَ تبحث عن قمر بلادك لترى إنْ كان أحلى كما يقال. بحثتَ، فلم تجده. لكنّ النسيم دومًا هو منقذُك ودليلُك الحرّ. أخبَرَكَ عن كلّ شيء في لحظة وَجْدٍ صغيرة: قال إنّ كلّ شيء في بلادك أحلى، بما في ذلك الحنظلُ.

دخلتَ أريحا، ناسيًا كلّ ماضيك. ها هنا يبدأ تاريخُك. تكتمل، لأول مرةٍ بك، أبعادُ الوجود الثلاثة: المكانُ والزمانُ وأنت. لأول مرة في حياتك لست لاجئًا. لأول مرة في حياتك يصبح المخيّم غربتك الأصيلة ووطنَك المؤقّت.

أنتَ الآن أنت!

دمشق